عودة الفنان

بقلم : عبد الملك نوري

(... انه فنان . فنان . إنه ملك الناس . ملك الانسانية جمعاء . لا يحق له ان يعبث بحياته هذا العبث . ومن أجل من ؟ من أجل امرأة . تافهة غادرة ...)

« هنا بغداد ... »

وهدير المذياع ينسكب في غيوم الضجيج ، في لهاث الموتى المهومين فوق الارائك . وينطلق من ابواب المقاهي الى ظلمة الشارع الحزين ، الهامس .

« تسمعون الآن ... »

عويل الريح يشمل الشجر ، ويقرع مصاريع المدينة الغافية ، ونفير المطر يزحم وحشة الليل العميق . « وهو » يخب ، في غيهب مصطف مبلول ، تنقله رجلاه عبر المباني الشاحبة ، والسجف المضفاة واحلام الحياة ومساكن اللذات . والطريق يمتد طويلا في اللفائف الظلماء — قمط الرذيلة العارية . وعناكب الضوء الندية تجثم مرعوبة فوق الأفاريز والعيون الغبراء في جباه المقاهي ترسل النسيج الواهن الضئيل .

وهو يخب فوق النهر الأسود — يمور صلباً تحت قدميه في وجه الريح النافخة . وحبات القطر الثقال تسفح وجهه المخبول . لا ومضة فكر ، ولا فضلة رغبة ولا اثارة حسن . في الفضاء الادكن حشرجة اغنية فاجرة ، تتهالك على نفسها — صراع الاجساد الثائرة . وحمم الشهوات الناحبة ، والظلام يخترق القلب ، وسباق العواميد يشج الرأس والرشاش الاسود يلطخ كل شيء . مخاضات من الوحل . ومجموعة اطياف تحيا في النسيج الضئيل . وتموت في عناق الظلمة .

***

وتضج السحب بالرعد ، ويضطرم خيط من البرق في حواشي السماء ، وهو ينحدر الى جوف الدرب الناحل ، ينساب متخفياً في ظلمات التاريخ . والدهور المنهوكة تطل من كوى الخرائب الواجمة والجدران الرطبة تتعانق فوق سيول المرازيب ، والحياة المقرورة تجثم في اعشاش البؤس والزمن لا نأمة فيه . الوان من شقاء . فقر يتمخض عن فقر . واجيال من عبيد تصل اغلالها في الاعماق المظلمة . مواكب احياء تتمرغ في الوحل اللازب . في فراغ الحياة . ورجفة الذل تتصل في الاجساد الذاوية يوما بعد يوم . عاما بعد عام .

نمال الكد اللاغب ، في مثاوى العيش المقيت . وهو يلهث ، وخطاه تسرع والعرق يتفجر في مسام جسده . ومن بعيد يمتد نعيب سائل هرم . وتهب صرخات نزاع بين اسر العبيد . صدام التوافه وغرائز الانسان الاول . وبائعة الفول تخوض في الوحل . اوانيها السخاء فوق رأسها المائل الوسنان . وابو علي يحكم رتاج الدكان الصغير — منبع النور الوحيد في الحي الكئيب . والحياة تتمهل ، والظلمة تشتد ، وهو يدلف مسرعاً الى المأوى الأعزل — فلذة الم وطعم . والقطرات الثقال تسيل انهاراً على وجهه المخبول .

***

وفي اعماقه ينهمر صوت بالحاح : لماذا ، لماذا ، لماذا ؟

وعويل الريح يتهافت على زجاج النافذة ، ونفير المطر يشتد ، وبين قدميه تنتفض الاشباح الراقدة على السلم الناخر — ايامه الفانية وليالية الحمقاء — ترقى معه جمعياً الى غرفته الباردة الكئيبة ، تحف به من كل جانب ، فيسرع في الصعود . ويصطفق الباب وراءه بعنف يرج النزل ويمض النائمين . لا . لم يكن هو الذي صفق الباب بشدة . لقد فتحت النافذة مصراعيها للريح واخذت شعلة السراج

ترعش، والظلال تخفق على الحيطان الجرداء. وظله يضطرب على أرض الغرفة، واشباحه الناعسة تتحرك في زحمة التماثيل الذاهلة.

لا. لم يكن هو. ولكن لماذا، لماذا؟ انه لا يستطيع ان يفكر. الفراش غير مرتب. والغبار ما يزال كثيفاً على ظهر الصندوق. وتلك الحصلة من الجبس كان يجب ان تعاد الى موضعها من رأس الفتاة النائمة في الأرض. وبقايا السمن الجامدة في الصحن تثير القرف. ولكن. لماذا.. لماذا؟ عجيب، هذا الجزء الثقيل من جسده. هذا الرأس لم يعد يؤدي عمله. انون دافق بالحرارة فقط. والوجع الشديد. والنار تكاد تنطلق من عينيه النابضتين. عينيه النابضتين متى نبضتا ايضا. متى احس برأسه كالاتون. والوجع الشديد الصارخ؟ كان يعمل تحت السقف المزخرف في معهد النحت. كانت ترتدي ثوبا اخضر. وعيناها محمومتان ووجنتاها موردتان. تعالي هنا. انظري! ويقودها من يدها الباردة ويرفع البرقع عن تمثالها النحيف لقد شحب وجهها. انها تهتز من الاعماق، ويدها ايضا ترجف في كفه.. أهذه انا؟ سالم انه اجمل مني بكثير! «....» نعم حبيبتي، هذه انت. هكذا تراك عيناي..! » اوه عيناه تشتغلان، وبيتهالك على مقعد. ويغمضهما لم يعد يراها. لم يعد يرى تمثالها والسقف المزخرف لقد دخل في قوقعة نفسه. ولكنه يحس شفتيها تسريان على جفنيه المغمضين. كانت فيها رطوبة وبرودة لذيذة. انه ما يزال يحسها لقد ملأت لياليه ولكن اين هما من تلك الشفتين اللتين صنعتها يداه؟ لقد اودع فيها سحر الرغبة. جعلها قطعة من اغراء وفتنة، تدعو انه ابداً الى القبل. القبل الحالمة الطويلة. لطالما احتضن هذا التمثال القابع في زاوية من الغرفة، لطالما قبله وسهر معه الليالي يناغيه. ولكن. لماذا لماذا؟ اين هو الآن من هذا العالم؟ انه لا يستطيع ان يفكر. لا يستطيع ان يعمل، لقد قتلته «الغادرة» شلت يديه. كبلت فكره. غيبتها الخائنتان تحدقان فيه، تبسمان تلك البسمة التي عقلت قلبه ودست في روحه السم. لا. لم تكن هي. لم يكن هو. هذه امرأة اخرى وكان رجلا آخر. رجلا ينهض في التو من قبره العميق، ما يزال وحل الموت على ثيابه المبللة، لقد وقف محزوناً على الشاطئ المقفر، ركله الأمل ونبذته الحياة. والبرق ينصب على النهر الموارب، والامواج الكدراء تلمس رجليه. انها لحظة فقط — لحظة صغيرة خاطفة، وينتهي كل شيء. وقد تحمله الامواج الى بلد بعيد — جثة منتفخة شوهاء. افترس بعضها السمك. وقد تتساقط اشلاؤه عندما يحملونه الى القبر. لا، لن تكون هذه نهايته! ولكن لماذا. لماذا؟ ماذا صنع لها.. كي تبعث فيه كل ذلك الالم المميت؟ سيلهب بقية ضميرها. وستذكره هذه الغادة، ستذكره دائماً بشكله المعتاد: بسمته الساخرة، وجبينه المفكر وبقعة الدم المنتشرة على صدره، والمسدس يلتمع الى جانبه. هكذا كان حي ولكن لماذا. لماذا؟ لماذا يطوح بحياته؟ أفي سبيل امرأة تافهة يقف عن الحركة هذا العالم الخافق بأروع الاحاسيس واعظم الفكر؟

انه فنان. فنان. ملك الناس. ملك الانسانية جمعاء. لا يحق له ان يعبث بحياته هذا العبث. ومن أجل من؟ من اجل امرأة تافهة، غادرة. انها هي التي تستحق الموت. انها هي التي يجب ان تموت. ها هو البرقع القذر الممزق يغطي هذه الحياة الآسنة سيغطيها الى الابد. من كان يعرفها. لولم يصنع لها تمثالا. لقد نصبها على طريق الخلود لا. لم يكن هو الذي نحت هذه الروعة الاخاذة. لم تكن هي. هذه المرأة التي غدرت به انها مجرد انانية. انانية مفرطة وكبرياء حمقاء وجمود في الحسن. سيطوح بكل ذلك. نعم سيطوح به في لحظة صغيرة خاطفة، وسيقضي على تلك التي ارادها من الخالدين. هذا جزاؤها. لقد رفعها بيديه للمرة الاخيرة. كان يود ان يحملها الى سرير عرسه، كان يود ان يناجيها ويدللها وهي بين ذراعيه. ولكن ملمسها البارد يرسل صعيقاً في عروقه انه ينظر الى العينين الفتاكتين — للمرة الاخيرة ايضا — وداعا وداعا ايتها الدمية المجردة من كل حس. ويقذف بالتمثال من

النافذة . ويفرك يديه بارتياح . دوي ارتطامه يثير فيه شعوراً بالانتصار . لقد غار بظفر عميقاً في الوحل . اشلاء مهشمة ، سيطؤها الناس كل يوم ؛ وسيجف فوقها الوحل وتختلط بالتراب وتصبح بعضه . هذا جزاؤها الحق . وانه لمنتصر . لقد انتهى كل شيء . تحطم المه . لم يعد له الم . وينظر حواليه ويرسل بسمة مجنونة الى تماثيله الوجلة المرعوبة . « آه ، يا احبائي المساكين ! انا سعيد ، انا سعيد انا سعيد » ويطلق قهقهة صاخبة ترج المنزل ، ويخرج رأسه من النافذة ، وينظر الى الوحل الاسود ؛ وقطرات المطر تساقط في ظلمات شعره الكثيف .

انه حر . يستطيع ان يفعل ما يشاء . قواه الخارقة تنطلق من عقالها ، ويحس دفق الحيوية في اصابعه - في ذراعيه - في كيانه كله . انه يستطيع ان يعمل . يستطيع ان يرعى تماثيله المسكينة الرافلة بالتراب . لقد خانها . اهملها اشهراً طويلة ، من اجل تلك المرأة التافهة . يا الله . هذا الرأس النابت في الارض . كأنه جزء منها . ما اجمله ، ما اروعه . اكان من صنعه هو ؟ انه لايكاد يصدق . انها تحفة تحفة من رائع الفن . البراءة والخير تطفحان على الوجه الفتان الوضيء .

لقد رفعه بحنو . واخذ يتأمله من جديد . كمن يراه لأول وهلة . وتناول خصلة الجبس واعادها الى موضعها ، ثم وضع الرأس على قاعدة من خشب ثمين ، وتلفت حواليه انه يريد ان يتفقد مملكته الزاخرة بالجمال والحياة ، لقد هجرها طويلا ؛ سيضع للغادرة وجهاً كوجه البوم وجهاً محفوراً على الخشب . يكون رمزاً للشؤم والشر والرذيلة يشيع الرهبة في نفوس الناس .

ولكنه لايريد ان يذكرها ، لايريد ان يذكر القبح والشر ، الآن على الاقل . الى جانب هذه « الشهيدة » المسجاة على الارض فوق دمائها . والوشاح الرقيق ليغطي جسدها الهامد ان وجهها حي ينبض بالحياة . يكاد ينطق بانتصار الموت الشريف على حياة الخيانة والذل انه روعة . روعة عبقرية ، لايصدق انه قد صنع هذا التمثال بنفسه . آه اين منه تلك الايام التي كان يعمل فيها ليلا ويخوض المعارك في النهار . لقد انطلق ازيز الرصاص يدوي في رأسه . والدماء تسيل على ارض الشارع . وتقطر من الجسر الى النهر الخالد والنساء يحملن القتلى ، ويرفعن ايديهن بالحجر . هنالك سقطت تلك « الشهيدة » مضرجة بدمائها . يالها من ايام ايام رائعة حمراء ! . ان قلبه يخفق بشدة ، وعينيه تدمعان ، ورأسه يشتعل . انه يخطو الى النافذة مسرعا ، ويطل برأسه في الفضاء الحالك ويصغي الى عبث الرياح . لقد كف المطر عن الهطول . واخذت الريح تتناوح فوق الحي الكئيب والحياة المقرورة تهدأ في اعشاش البؤس . ويهب من الارصفة البعيدة هدير المذياع ، واغنية خافتة ، تتلكأ الفاظه في الجو الرطب ، وترسم في الافق المظلم امل الانسانية الكادحة المظلومة . هنالك شعوب في اقاصي الارض تتحرر وتمزق ثوب العبودية الى الابد ، ومواكب احياء تصنع تاريخها وتنشئ حياتها الاخرى بنفسها لاوصاية ولاحماية! آه ياله من حلم جميل . ياله من واقع جميل ان يتحقق . ويذكر الفنان فجأة . يذكر روعته الصخرية المغلفة التي حبسها في ظلام زاوية . ياله من خائن ، ياله من شرير . لقد استسلم باجمعه الى تلك المرأة التافهة . تركها تقف بينه وبين اعظم مايصبو الى تحقيقه ، تركها تمتص حياته وقواه . لم تبق له رأسا يفكر . لم تبق له ذراعاً تعمل . ولكنه سيعمل سيعمل منذ الآن . سيصل الليل بالنهار . لن يتوانى قط ، لن يكف عن العمل .

ويهرع راكضاً الى صندوقه الخشبي ، ويتناول المطرقة الحديدية الثقيلة . ويسحب الستار عن تلك الصخرة الرائعة الجاثمة في ظلام الزاوية . يختلج فوقها لهاث السراج ان رأس الحرية الفاتن يشمخ في ذروتها وقد انتصب بكبرياء ، وخصل الشعر الثائرة تتطاير في الهواء ، واذيال ثوبها الرقيق تموج وراء ساقيها الطويلتين . وهي تخطو الى الامام ، والعبيد . عشرات العبيد يسيرون وراءها . وعند اقدامهم الحافية حطام اغلالهم تتلوى كالثعابين . وهم يدوسون فوقها بقوة وبأس . وارجلهم العارية غليظة عبال وفي وجوههم صرامة وعزم وأمل بحياة اخرى .